

«لولا» في القرآن الكريم - دراسة بلاغية -

د. شعيب يحيى، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سعيدة، الجزائر.

ملخص

إن القرآن الكريم دقيق في استعمال ألفاظه، فلا يأتي لفظ إلا في مكانه الذي يستحقه دون غيره، لذلك جاء هذا المقال لينظر نظرة علمية دقيقة في استعمال القرآن الكريم للحرف (لولا)، وقد تم إحصاء مواضعه والنظر في دلالاته التي تنوعت حسب سياقاتها. وكان لا بد قبل ذلك من عرض آراء النحويين حول ورود لولا في لغة العرب ومعانيها عندهم. ثم التطرق بعد ذلك للمعاني التي انتقاها القرآن دون الأخرى، مع إحصاء دلالات كل معنى بدقة، والتمثيل ما أمكن لها مع الشرح والتفسير.

Abstract

It is evident that Qur'an is precise and accurate in terms of using words, and every single term is put in a suitable, expedient place which it deserves it efficiently. This article is mainly written down to highlight on the term «lula» (لولا) with scientific precise view, we have counted and showed its location by regarding its meanings in different contexts. As we cited the grammarian's opinions about «lula» (لولا) meanings in the Arabic language. Then we mentioned its meanings in the Qur'an computing its different significations with illustration.

المقدمة:

لقد لَقِيَ القرآن الكريم عنايةً كبيرةً من البلاغيين قدامى ومُحدثين، فتعددت دراساتهم البلاغية في جانب البيان والمعاني والبديع، ولا شك أن علم المعاني كان المجال التكميلي الذي سَدَّ ما خَلَّفَهُ النحو من ثغرات، حتى أن مُصطلح المعاني عند البلاغيين إنما كان المقصود به معاني النحو.

ومن الأحرف النحوية التي استحقَّت الدراسة والبحث عن دلالاتها البلاغية في القرآن الكريم هو الحرف (لولا). فقد ورد ذكره في كثير من مواضع القرآن، ولكنها مواضع تختلف في استعماله، فكان لا بدَّ من تتبعها وإحصائها في سياقاتها التي وردت فيها، ومحاولة التمييز بين استعمالات لولا البلاغية ودلالاتها الأسلوبية.

أولاً - لولا عند النحويين:

لولا في مباحث النحويين حرفٌ مُركَّب من حرفين (لو) و(لا)، توخَّد هذان الحرفان، وصارا حرفاً واحداً يؤدِّي معنى جديداً لم يكن قبل التركيب. ومنهم من قال أن لولا حرفٌ قائم بذاته غير مركَّب⁽¹⁾. وقد وردت عندهم في استعمالها على أربعة أوجه: وجهان متَّفَقٌ عليهما: لولا حرفٌ يدخلُ على اسم، ولولا حرفٌ يدخلُ على فعل. ووجهان قال بهما البعض: لولا حرفٌ جرٌّ شبيه بالزائد، ولولا حرفٌ عطف.

الوجه الأول: لولا حرفٌ مُقتَضٍ بالاسم:

وهي حرفٌ شَرَطٌ غير جازم، شرطها جملة اسمية وجوابها جملة فعلية، وتدلُّ على امتناع جوابها لوجود شرطها، لذلك تُسمَّى حرف امتناع لوجود أو لوجوب: وتُعرف بلولا الامتناعية⁽²⁾. وهي تتميز بميزاتٍ أهمها:

1. أن يليها اسمٌ مرفوع، وهذا الاسم اختلفوا في وظيفته:

- فالبصريون يقولون إنه مُبتدأ مرفوع؛ وعليه جمهور النحاة⁽³⁾. وهذا المبتدأ (في رأيهم) يصحُّ أن يأتي بعد لولا نكرة⁽⁴⁾.

- والكوفيون يقولون إنه فاعل مرفوع؛ واختلفوا في عامل رفعه، فالبعض قال مرفوع بفعلٍ مُقدَّر بعد لولا (تقديره: لولا وُجد)، والبعض قال بفعلٍ نابت (لا) عنه (تقديره مثلاً: لو انعدم)، وبعضهم قال مرفوع بلولا لنيابتها مناب (لو لم يوجد)، والفراء قال بل هو مرفوع بلولا نفسها لا لنيابتها مناب (لولم يوجد)⁽⁵⁾.

2. أن هذا الاسم المبتدأ خبره محذوفٌ وجوبا. واختلفوا في ماهية هذا الخبر:

- فأغلبُ النحاة على وجوب أن يكون هذا الخبر كوناً عاماً، أي يدلُّ على مجرد الوجود

- العام من غير زيادة عليه؛ فإن أريد كوناً خاصاً جعل هذا الكون الخاص مُبتدأً.⁽⁶⁾
- وذهب بعض النحاة أن الخبر يجب ذكره إذا كان كوناً خاصاً ولا دليل يدل عليه. ويجوز حذفه وإثباته إذا كان كوناً خاصاً وله دليل يدل عليه.⁽⁷⁾
- وأحد النحاة قال أن الخبر هو جملة جواب الشرط.⁽⁸⁾
3. أن يكون جواب الشرط فعلاً ماضياً مثبتاً أو منفيّاً بـ (ما)، مقترناً باللام عند أكثر النحاة في المثبت، وبعض النحاة يجيز إثبات اللام وحذفها؛ وقد يكون الجواب مضارعاً مجزوماً بلم.⁽⁹⁾
4. يجوز حذف جواب لولا إذا دلّ عليه دليل.⁽¹⁰⁾
5. همزة (إن) بعد لولا هي دائماً مفتوحة (لولا أن)، لجوب تقديرها مع مَعْمُولِهَا بمصدر يقع في محلّ رفع.⁽¹¹⁾

الوجه الثاني: لولا حرف مُقتَضٍ بالفعل:

- وهي حرف يأتي بعده فعل، وتُسمّى بحسب الدلالة التي يكتسبها الفعل بعدها من سياقه:
- فهي حرف تحضيض أو حرف عرضٍ إن وَلَّيَها الزَمَنُ المستقبل: فعلٌ مضارع، أو فعلٌ ماضٍ مؤوَّلٌ بالمضارع (لفظه ماضٍ ومعناه مضارع). والتحضيض أن يدلّ السياق على الحثّ وطلب الشيء بقوةً وشدةً تظهر في نبرات الأصوات القوية والألفاظ الجزلة؛ والعرض أن يدلّ السياق على الطلب برفقٍ ومُلاينة، تُعرف من نبرات الأصوات، وصياغة الألفاظ الرقيقة.⁽¹²⁾
- وهي حرف توبيخ أو تنديد أو تلويح إذا وَلَّيَها الزَمَنُ الماضي: فعلٌ ماضٍ (لفظاً ومعنى) يدلّ في سياقه على هذه الدلالات.⁽¹³⁾
- ومن النحاة من جعلها قد تدلّ على الاستفهام.⁽¹⁴⁾
- وجملة التحضيض أو العرض قد تحتاج إلى جوابٍ وقد لا تحتاج حسب المقام. وهذا الجواب وجب أن يكون مُضارعاً إمّا مقروناً بفاء السببية، وإمّا خالياً منها.⁽¹⁵⁾
- الوجه الثالث: لولا حرف جرّ شبيه بالزائد
- وهذا مذهب سيبويه إذا اتّصل بلولا ضميرٌ مَوْضُوعٌ للجرّ، كالياء (لولا)، والكاف (لولاك)، والهاء (لولاها). فهذه الضمائر عنده لها محلّان: محلّ الجرّ بلولا، ومحلّ الرفع على أنها مبتدأ خبره محذوف وجوبا.⁽¹⁶⁾

أمّا الأخفش والكوفيون فـ(لولا) عندهم تبقى حرف امتناع لوجود، والضمير المتّصل في محلّ رفع مبتدأ. وذهب المبرِّدُ إلى تلحين (لولا) مع الضمائر المتّصلة، وأنّ

الفصيح هو مجيء الضمائر المنفصلة بدلها، فلا يجوز أن يُقال لولاي، ولولاك، ويجب أن يقال لولا أنا، ولولا أنت، فيؤتى بالضمير المنفصل كما جاء به التنزيل في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 31] ولهذا لم يأت في التنزيل إلا مُنْفَصِلًا.⁽¹⁷⁾

الوجه الرابع: لولا حرف عطف:

وهذا مذهب الكسائي الذي أثبت العطف بـ(لولا) في قولك: مَرَزْتُ بَرِيدَ فَلَوْلَا عَمَرُو بِالْجَرِّ، وأباه الفراء والبصريون.⁽¹⁸⁾

ثانيا - دلالات لولا في القرآن الكريم:

وَرَدَتْ لولا في القرآن الكريم بوجهيها الأول والثاني فقط، ولم ترد بوجهيها الثالث والرابع، فكلُّ استعمالاتها في القرآن الكريم كانت إمَّا لولا الداخلة على جُملة اسمية، وإمَّا الداخلة على جُملة فعلية. وقد تَكَرَّرَتْ خمساً وسبعين مرَّة، انْقَسَمَتْ كالتالي:

- أربع وثلاثون مرَّة: لولا المختصة بالاسم (الامتناعية).
- أربع وثلاثون مرَّة: لولا المختصة بالفعل في الزمن المستقبل (التحضيرية).
- سبع مرَّات: لولا المختصة بالفعل في الزمن الماضي (التوبيخية).

أ - لولا الامتناعية:

هي أداة شرط غير جازمة، تدخل على جملتين: جملة اسمية هي جُملة الشرط، وجملة فعلية هي جُملة الجواب. وقد بُنِيَتْ جُملة الشرط على مُبتدأ محذوف الخبر في كُلِّ القرآن الكريم، وتنوَّع هذا المبتدأ ولم يأت على بنية واحدة، إذ وَرَدَ على أربعة أشكالٍ كالتالي:

- اسماً مُضافاً: ثلاث عشرة مرَّة.
- اسماً نكرةً موصوفة: ثمان مرَّات.
- مَصْدَراً مُؤَوَّلاً: اثنتا عشرة مرَّة.
- ضميراً مُنْفَصِلاً: مرَّة واحدة فقط.
- كما تنوَّعت جُملة الجواب لثلاثة أشكالٍ وَرَدَتْ كالتالي:
- فعلٌ ماضٍ مُقتَرَن باللام: أربع وعشرون مرَّة، (منها أربعة أفعالٍ ناقصة، وسبعة مُبْنِيَّة للمجهول، وواحد اقْتَرَنَتْ فيه اللام بِقَدْ).
- فعلٌ ماضٍ منفِيٌّ بـ(ما): مرَّة واحدة فقط.
- الجواب محذوف: تسع مرَّات حُذِفَ فيها جواب الشرط، (سبعة دَلَّ على الجواب ما قبل لولا، واثنان حُذِفَ فيهما الجواب للتهويل).

ونستطيع أن نميّز بين ثلاث دلالات في الامتناع: أولها ما كان محدداً للتعين، وثانها ما كان مُقدّماً للعناية والاهتمام، وثالثها ما كان مُعظماً للتحويل فيذهب فيه الذهن كل مذهب.

1 □ الامتناع لغرض التعيين:

أي جواب لولا مذكور غير محذوف، فهو الامتناع الذي كان محدداً ثابتاً في الجملة، وقد استعمله القرآن خمساً وعشرين مرة، كلها أفعالاً ماضية:

- منها ثلاث وعشرون افتترت باللام مباشرة، أولها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 64]. وآخرها قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَذَكَّرَهُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [سورة القلم: 49].

- وواحدة افتترت باللام و(قد)، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: 74].

- وواحدة سبقتها نفياً بالحرف (ما). وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [سورة النور: 21].

2 - الامتناع لغرض الاهتمام:

أي جواب لولا مُقدّم عليها، فهو نحويًا محذوف دلّ عليه ما ذكر قبلها.

وفائدة نسج الكلام على هذا المنوال دون أن يُؤتى بأداة الشرط ابتداءً مثلوةً بجوابها قصد العناية بالخبر ابتداءً بأنه حاصل ثم يُؤتى بالشرط بعده تقييداً لإطلاق الخبر فالصناعة النحوية تغتير المُقدّم دليل الجواب، والجواب محذوفاً لأنّ نظراً النحوي لإقامة أصل التركيب، فأما أهل البلاغة فيعتبرون ذلك للاهتمام وتقييد الخبر بعد إطلاقه، ولذا قال في «الكشاف»: «لولا في مثل هذا الكلام جار مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى لا من حيث الصنعة» فهذا شأن الشرط الواقعة بعد كلام مقصود لذاته... وقول النحويين في مثله هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه.⁽¹⁹⁾

وقد ورد ذكر هذا الغرض في القرآن سبع مرات، أولها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [سورة الأعراف: 43]. وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: لولا هداية الله لنا موجودة ما اهتدينا أو لشقينا.⁽²⁰⁾

وبعده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [سورة يوسف: 24]. فقَدّم الجواب على شرطه للاهتمام به. ولم يقرن الجواب باللام التي يكثر افتتران جواب لولا بها لأنه ليس لازماً ولأنّه لما قدّم على لولا كره قرنه باللام قبل ذكر حرف الشرط، فيحسن الوقف على قوله: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ لِيُظْهِرَ مَعْنَى الْإِبْتِدَاءِ بِجُمْلَةٍ وَهَمَّ بِهَا

(21) واضحا.

وآخره قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة القصص: 47].
فالتقدير هنا: ولولا إصابتهم بمصيبة يعفوها قولهم ربنا لولا أرسلت إلخ لما عبأنا بإرسالك إليهم لأنهم لأتتهم أهل عناد وتصميم على الكفر. فجواب لولا محذوف دل عليه ما تقدم من قوله ﴿وما كنت بجانب الغربي.. إلى قوله.. لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ [القصص: 44-46]، أي ولكنا أعذرنا إليهم بإرسالك لنقطع معذرتهم. وجواب لولا محذوف دل عليه الكلام السابق، أي لولا الرحمة بهم بتذكيرهم وإنذارهم لكانوا مستحقين لحول المصيبة بهم. (22)

3 - الامتناع لغرض التهويل:

أي جواب لولا محذوف، فالامتناع هنا غير محدد، بل جيل شاغرا ليملاء ذهن بما يذهب إليه من مذاهب شتى. وهذا النوع من الامتناع استعمل لغرض التهويل والتعظيم.

وقد ورد في القرآن مرتين، كلاهما في سورة النور، منه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة النور: 10]. «وجواب (لولا) محذوف لقصد تهويل مضمونه فيبدل تهويله على تفخيم مضمون الشرط الذي كان سببا في امتناع حصوله. والتقدير: لولا فضل الله عليكم فدفع عنكم أذى بعضكم لبعض بما شرع من الزواجر لتكالب بعضكم على بعض، ولولا رحمة الله». (23)

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة النور: 20]. «هذه ثالث مرة كرز فيها ولولا فضل الله عليكم ورحمته وحذف في الأول والثالث جواب (لولا) لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تقديره بحسب المقام». (24)

ب - لولا التحضيضية:

هي حرف يدخل على جملة فعلية فعلمها مضارع أو ماض مؤول بالمضارع. وقد تنوع فعل التحضيض في القرآن الكريم إلى:

- اثنان وعشرون حالة للفعل الماضي المؤول بالمضارع، منها خمس عشرة مرة للفعل الماضي المبني للمجهول.

- اثنتا عشرة حالة للفعل المضارع. ويوجد منها حالة لفعل مضارع واحد كان تحضيضا لحرفي لولا في عبارة واحدة.

وبالتأمل في النماذج القرآنية نستطيع أن نميز بين ثلاث دلالات لهذا القسم:

1- التحضيض المحض:

وهو التحضيض الذي انصرف في القرآن إلى الحثّ وطلب حصول الفعل المطلوب. وقد تكرر في القرآن عشر مرّات: أولها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [سورة النساء: 77]. بمعنى تُؤَخِّرُنَا لَأَنَّ «المُرَاد بِالْأَجَلِ الْقَرِيبِ الزَّمَنُ الَّذِي يَفُوقُونَ فِيهِ وَيَسْتَعِدُّونَ لِلْقِتَالِ بِمِثْلِ مَا عِنْدَ أَعْدَائِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَلَّا يَكُونُوا قَصَدُوا أَجَلًا مُعَيَّنًا مَعْلُومًا».⁽²⁵⁾

وآخرها قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [سورة القلم: 28]. أي قال أمثلهم وأعقلهم وأعدلهم وخيرهم رأياً وتديننا: هَلَّا تُسَبِّحُونَ الله وتذكرونه وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، وتستغفرون الله من فعلكم وتتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها.⁽²⁶⁾

2- التحضيض التعجيزي:

وهو تحضيض يُقصد به التعجيزُ عن الإتيان بالفعل المطلوب. وقد ورد في القرآن سبع عشرة مرّة، أولها قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [سورة البقرة: 118]. ولَوْلَا هُنَا حَرْفُ تَحْضِيضٍ قُصِدَ مِنْهُ التَّعْجِيزُ وَالِاعْتِدَارُ عَنْ عَدَمِ الْإِصْغَاءِ لِلرَّسُولِ اسْتِكْبَارًا بِأَنَّهُ عَدُّوا أَنْفُسَهُمْ أَخْرِيَاءَ بِالرَّسَالَةِ وَسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا مُبَالِغَةٌ فِي الْجَهَالَةِ.⁽²⁷⁾

وآخره قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87)﴾ [سورة الواقعة]. وَأَصْلُ تَرْكِيبِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ: فَإِذَا كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ فَلَوْلَا حَاوَلْتُمْ عِنْدَ كُلِّ مُحْتَضِرٍ إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الْخُلُقُومَ أَنْ تُرْجِعُوهَا إِلَى مَوَاقِعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ جَسَدِهِ فَمَا صَرَفَكُمْ عَنْ مُحَاوَلَةِ ذَلِكَ إِلَّا الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ بِأَنَّ الرُّوحَ ذَاهِبَةٌ لَا مَحَالَةَ. فَإِذَا عَلِمْتَ هَذَا اتَّضَحَ لَكَ انْتِظَامُ الْآيَةِ الَّتِي نُظِمَتْ نَظْمًا بَدِيعًا مِنَ الْإِيجَازِ، وَأُدْمِجَ فِي دَلِيلِهَا مَا هُوَ تَكْمِلَةٌ لِلْإِعْجَازِ. وَ(لَوْلَا) حَرْفُ تَحْضِيضٍ مُسْتَعْمَلٌ هُنَا فِي التَّعْجِيزِ لِأَنَّ الْمَحْضُوضَ إِذَا لَمْ يَفْعَلْ مَا حُضُّ عَلَى فِعْلِهِ فَقَدْ أَظْهَرَ عَجْزَهُ وَالْفِعْلُ الْمَحْضُوضُ عَلَيْهِ هُوَ تَرْجِعُوهَا، أَيُّ تُحَاوِلُونَ رُجُوعَهَا ... وَكَلِمَةُ فَلَوْلَا الثَّانِيَةُ تَأْكِيدٌ لَفُظِي لِنَظِيرِهَا السَّابِقِ أُعِيدَ لِيُثْبِتَ عَلَيْهِ جُمْلَةُ تَرْجِعُوهَا لِطُولِ الْفَصْلِ ... قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَقَوْلُهُ: تَرْجِعُوهَا سَدَّ مَسَدَ الْأَجْوِبَةِ وَالْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَفْتَضِيهَا التَّحْضِيضَاتُ، وَإِذَا، مِنْ قَوْلِهِ: فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتْ، وَ(إِنْ) الْمُتَكَرِّرَةُ، وَحَمَلَ بَعْضُ الْقَوْلِ بَعْضًا إِيْجَازًا أَوْ اقْتِضَابَاتًا.⁽²⁸⁾

3 - التحضيض الاحتجاجي:

وهذا التحضيض يُؤتي به للاحتجاج في إبطال رأي المخالف، وقد ورد في القرآن سبع مرّات. وغالبا ما تُحقّق هذه الدلالة -دلالة الاحتجاج- بدلالات أخرى كالتحذير مثلا في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [سورة هود: 116]. (لَوْلَا) حَرْفُ تَحْضِيضٍ بِمَعْنَى (هَلَا). وَتَحْضِيضُ الْفَائِتِ لَا يُقْصَدُ مِنْهُ إِلَّا تَحْذِيرُ غَيْرِهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ وَالْعِبْرَةُ بِمَا أَصَابَهُمْ. (29)

ومن الاحتجاج قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [سورة طه: 134]. حَرْفُ تَحْضِيضٍ، مُسْتَعْمَلٌ فِي اللَّوْمِ أَوْ الْإِحْتِجَاجِ لِأَنَّهُ قَدْ فَاتَ وَقْتُ الْإِرْسَالِ، فَالتَّقْدِيرُ: هَلَّا كُنْتُ أَرْسَلْتُ إِلَيْنَا رَسُولًا وَانْتَصَبَ فَنَتَّبِعَ عَلَى جَوَابِ التَّحْضِيضِ بِاعْتِبَارِ تَقْدِيرِ حُصُولِهِ فِيمَا مَضَى. (30)

وأيضا الاحتجاج بالتمني مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [سورة محمد: 20]. وَلَوْلَا حَرْفُ مُسْتَعْمَلٌ هُنَا فِي التَّمَنِّي، وَأَصْلُ مَعْنَاهُ التَّخْصِيصُ فَأُطْلِقَ وَارْتِدَّ بِهِ التَّمَنِّي لِأَنَّ التَّمَنِّي يَسْتَلْزِمُ الْجَرَصَ وَالْجَرَصُ يَدْعُو إِلَى التَّحْضِيضِ. (31)

وآخرها قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [سورة المجادلة: 08]. وَلَوْلَا لِلتَّحْضِيضِ، أَيْ هَلَّا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِسَبَبِ كَلَامِنَا الَّذِي نَتَنَاجَى بِهِ مِنْ ذَمِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْوِ ذَلِكَ... فَإِنَّ لَوْلَا لِلتَّحْضِيضِ مُسْتَعْمَلَةٌ كِنَايَةً عَنْ جُحْدِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ لَوْ كَانَ نَبِيًّا لَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلَعَذَّبَنَا الْآنَ بِسَبَبِ قَوْلِنَا لَهُ. (32)

ت - لولا التوبيخية:

وهي حرفٌ يدخلُ على جملةٍ فعليةٍ فعلها ماضٍ لفظاً ومعنى. وتردّد هذا القسم في القرآن الكريم سبع مرّات؛ انْقَسَمَتْ دلالاتها بين نمطين اثنين:

1 - التوبيخ المحض:

إذا دخلت لولا على فعلٍ مُضَيٍّ قد فات وقوعه، وكان الكلام مُوجَّهاً إلى صاحب الفعل، كَانَتْ مُسْتَعْمَلَةً فِي التَّغْلِيظِ وَالتَّنْذِيرِ وَالتَّوْبِيخِ عَلَى تَفْوِيئِهِ.

وقد استعمل القرآن هذا النمط خمس مرّات؛ أولها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسُ﴾ [سورة يونس: 98]. وَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي لَازِمِ التَّوْبِيخِ كِنَايَةً عَنِ التَّغْلِيظِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ قَدْ انْقَضَوْا. (33)

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [سورة الكهف: 39].

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [سورة النور: 12]. (لَوْلَا) هُنَا حَرْفٌ بِمَعْنَى (هَلَّا) لِلتَّوْبِيخِ كَمَا هُوَ شَأْنُهَا إِذَا وَلِيَهَا الْفِعْلُ الْمَاضِي وَهُوَ هُنَا ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ. وَأَمَّا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ فَهُوَ ظَرْفٌ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ الظَّنِّ فَقُدِّمَ عَلَيْهِ. ⁽³⁴⁾

وآخرها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ [سورة الأحقاف: 28].

2- التوبيخُ التعجبي:

إِذَا تَوَجَّهَ الْكَلَامُ الَّذِي فِيهِ (لَوْلَا) إِلَى غَيْرِ صَاحِبِ الْفِعْلِ الَّذِي دَخَلَتْ عَلَيْهِ كَانَتْ مُسْتَعْمَلَةً فِي التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهُ. وقد استعمله القرآن مَرَّتَيْنِ؛ الأولى هو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: 43]. والثانية قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [سورة النور: 13].

خاتمة:

وبعد هذا التفحُّص الدقيق لحالات لولا في استعمال القرآن الكريم نستطيع أن نُوجز أهمَّ دلالاتها كالآتي:

- استعمل القرآنُ مَعْنَيَيْنِ مِنْ معاني لولا المعروفة في اللغة، إذ اقتصر على لولا الداخلة على اسم والمسمَّاة الامتناعية. وأيضاً لولا الداخلة على فعل والمسمَّاة التحضيضية أو التوبيخية.

- تكرر لولا في القرآن الكريم خمساً وسبعين مرة. حيث تكررت لولا الامتناعية أربعاً وثلاثين مرة، ومثلها لولا التحضيضية، أمَّا التوبيخية فقد ترددت سبع مرات.

- استعمل القرآن لولا الامتناعية ضمن ثلاث دلالات، أولها دلالة الامتناع لغرض التعيين خمساً وعشرين مرة، وثانيها الامتناع لغرض الاهتمام سبع مرات، وثالثها الامتناع لغرض التهويل مَرَّتَيْنِ.

- استعمل القرآن لولا التحضيضية أيضاً بثلاث دلالات، أولها التحضيض المحض عشر مرات، والتحضيض التعجيزي سبع عشرة مرة، والتحضيض الاحتجاجي سبع مرات.

- أمَّا لولا التوبيخية فقد استعملها القرآن بدلاتين اثنتين، أولها التوبيخ المحض خمس مرات، وثانيها التوبيخ التعجبي مرتين.

- ونستطيع أن نضيف باستقراء لولا بين السور المدنية والمكية أن استعمالها كان غالبا في السور المكية بنسبة كبيرة. إذ تكررّت لولا الامتناعية في اثنتين وعشرين سورة: خمس عشرة مكية وسبعة مدنية، كما تكررّت التحضيضية أيضا في اثنتين وعشرين سورة: لكن أربع عشرة مكية وثمانيا مدنية، أما التوبيخية فتكررّت في خمس سور: أربع مكية وواحدة مدنية. وواضح أن الفترة قبل الهجرة كانت تحتاج إلى هذا التكتيف من دلالات لولا.

هوامش المقال:

- (1) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين كمال الدين الأنباري، المكتبة العصرية الطبعة الأولى 1424هـ- 2003م. ص: 65.
- (2) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، بدر الدين حسن بن قاسم، تحقيق د فخر الدين قباوة-الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الأولى، 1413 هـ - 1992 م. ص 597 - 598.
- (3) ينظر: إعراب لامية الشنفرى للعكبري المحقق: محمد أديب عبد الواحد جمران، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة: الأولى، 1404هـ 1984م. ص: 89.
- (4) ينظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك نور الدين الأشموني الشافعي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان الطبعة الأولى 1419هـ- 1998م ج 1 ص: 197.
- (5) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني ص: 601.
- (6) ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك لابن عقيل المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه الطبعة: العشرون 1400 هـ - 1980 م. ج 1 ص: 250.
- (7) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ج 1 ص: 217.
- (8) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المحقق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر - دمشق الطبعة: السادسة، 1985. ص: 360.
- (9) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني. ص: 598.
- (10) ينظر: المرجع نفسه. ص: 599.
- (11) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي المحقق: عبد الحميد هندواي الناشر: المكتبة التوفيقية - مصر. ج 1 ص: 499.
- (12) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ص: 361.
- (13) ينظر: المرجع نفسه. ص: 361.
- (14) ينظر: المرجع نفسه. ص: 362.

- (15) ينظر ضياء السالك إلى أوضح المسالك محمد عبد العزيز النجار الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى 1422 هـ - 2001 م. ج 4 ص: 77.
- (16) ينظر: الكتاب سيبويه المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الثالثة، 1408 هـ - 1988 م. ج 2 ص: 373.
- (17) ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ج 3 ص: 7.
- وينظر الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين. ج 2 ص: 564.
- (18) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ج 3 ص: 219.
- (19) ينظر: التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور، الناشر الدار التونسية للنشر - تونس سنة 1984 هـ ج 19 ص: 33.
- (20) ينظر: إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين درويش، الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) الطبعة الرابعة، 1415 هـ ج 3 ص: 355.
- (21) ينظر: التحرير والتنوير ج 12 ص: 253.
- (22) ينظر: المرجع نفسه ج 20 ص: 135.
- (23) ينظر: المرجع نفسه ج 18 ص: 168.
- (24) ينظر: المرجع نفسه ج 18 ص: 185.
- (25) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: 1990 م. ج 5 ص: 215.
- (26) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج وهبة بن مصطفى الزحيلي الناشر: دار الفكر المعاصر - دمشق الطبعة: الثانية، 1418 هـ ج 29 ص: 61.
- (27) ينظر: التحرير والتنوير ج 1 ص: 689.
- (28) ينظر: المرجع نفسه ج 27 ص: 343.
- (29) ينظر: المرجع نفسه ج 12 ص: 183.
- (30) ينظر: المرجع نفسه ج 16 ص: 347.
- (31) ينظر: المرجع نفسه ج 26 ص: 107.
- (32) ينظر: المرجع نفسه ج 28 ص: 32.
- (33) ينظر: المرجع نفسه ج 11 ص: 288.
- (34) ينظر: المرجع نفسه ج 18 ص: 174.

